سليم تماري*

محمد كرد علي وشبح جمال باشا:
مثقفو سورية وفلسطين بين هويتين: العثمانية والعروبة**

تعالج هذه الدراسة العلاقة الشائكة بين الهويتين العثمانية والعربية بأسئلتها المعقدة خلال الحرب العالمية الأولى، انطلاقاً من محمد كرد علي في موقفه الدفاعي عن الثقافة العربية داخل اتحاد عثماني كان يواجه لحظه زواله أمام القوى الاستعمارية الأوروبية.

بعد عامين من اندلاع الحرب العظمى، أي في خريف سنة ١٩١٦، أعدّت القيادة العثمانية لإرسال بعثة من الكتّاب والصحافيين وعلماء الدين في المحافظات السورية من أجل زيارة جبهة الدردنيل، وكان الغرض منها، وفقاً للمؤلفين الذين كتبوا التقرير عنها: أولاً، دراسة مجرى العمليات العسكرية في جناق قلعة (معركة غاليبولي)؛ ثانياً، حشد الدعم لجهود الحرب العثمانية في الأقاليم العربية في السلطنة، وتعزيز التضامن العربي ـ التركي، وهذا الهدف الأخير من البعثة هو إشارة واضحة إلى تصاعد موجة الحركات الانفصالية العربية. وكان المحرّض الرئيسي لهذه الحملة أحمد جمال باشا، حاكم سورية وقائد الجيش الرابع في الجبهة الفلسطينية ـ السويس، الذي نظّم المجموعة بعناية لتشمل "أهل الرأي" من المنطقة. واختير توقيت المهمة كي يتزامن مع الانتصارات العسكرية الأخيرة للقوات العثمانية في الدردنيل، وتوظيفها لخدمة حملة أحمد جمال باشا الشرسة ضد الشريف حسين والمعارضة السورية.

وسنتطرق في هذه الدراسة إلى الأسلوب الذي اتُّبع في الحرب العظمى في سياق إعادة تعريف العلاقة بين إستانبول والمحافظات العربية، وكيف عبّر المثقفون العرب عن إشكالية العلاقة بين الهوية القومية العثمانية، والعروبة. وتتمحور هذه الدراسة

* كاتب فلسطيني.

** **المصدر**: Salim Tamari, "A 'Scientific' Expedition to Gallipoli: The Syrian-Palestinian Intelligentsia and the Ottoman Campaign against Arab Separatism", *Jerusalem Quarterly*, vol. 56/57 (Winter 2013 - Spring 2014), pp. 6-28.

حول محمد كرد علي ودفاعه عن الثقافة العربية السورية الحداثية داخل الاتحاد العثماني.

ترأس البعثة الشيخ أسعد الشقيري من عكا، مفتي الجيش الرابع، وهو ناشط كبير في جمعية "الاتحاد والترقي" ومؤيد لحملة جمال باشا ضد القوميين العرب في ٦ أيار / مايو ١٩١٦، وكان تميّز قبل الحملة ببضعة أشهر، بإصداره عدداً من الفتاوى دعماً لإعدام عشرات من الوطنيين العرب في بيروت ودمشق والقدس الذين اتُّهموا بإثارة الفتنة والخيانة.[١] وقد أصدرت البعثة تقريراً من ٣٠٠ صفحة من تأليف محمد كرد علي، صاحب مجلة وجريدة "المقتبس" الدمشقية ورئيس تحريرهما، وأحد أبرز المفكرين العقلانيين في الشرق العربي، جنباً إلى جنب مع محمد الباقر رئيس تحرير جريدة "البلاغ" في بيروت، ومؤلفَين آخرين،

محمد كرد علي، دمشق ١٩١٦.

بعنوان "البعثة العلمية إلى دار الخلافة"، نُشر في بيروت في سنة ١٩١٦. ونشر كرد علي تقريراً آخر بعنوان "الرحلة الأنورية

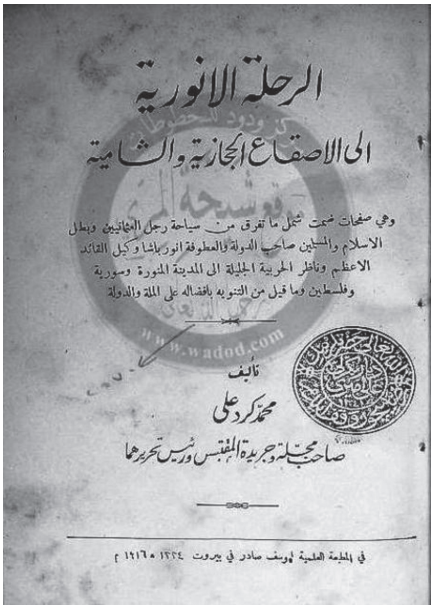

غلاف كتاب "الرحلة الأنورية"

إلى الأصقاع الحجازية والشامية"، أهداه بعد عدة أشهر إلى أنور باشا، وتناول فيه مهمة هذا الأخير إلى الحجاز وسورية لبحث الأوضاع في الجبهة السورية، والاستعدادات العثمانية لحملة السويس.[٢]

سلط تقرير "البعثة العلمية" الضوء على دور شريحة جديدة من المثقفين والمفكرين في الصراع على الهوية الوطنية للأقاليم العربية في أيام السلطنة العثمانية الأخيرة. ومع أن مصطلح النخبة المثقفة (أهل الفكر) هو مصطلح غير متبلور في هذا المجال، إلاّ إنه يوفر مرجعاً مفيداً لظهور فئة في حقبة ما بعد التنظيمات الإصلاحية العثمانية من أصحاب المهن في المناطق الحضرية لبلاد الشام. وشملت تلك التنظيمات الإصلاحية خريجي الأكاديميات العسكرية ومدارس الإرساليات، والموظفين في جهاز الخدمة المدنية الإقليمي، والموظفين وعلماء الدين المعيّنين من طرف الدولة، ومثلت تيارات كبيرة من أدباء المناطق الحضرية في

النهضة العربية في القرن التاسع عشر، وهي تيارات مشاركة في التعليم الخاص والعام، وفي المسرح والصحافة ـ كما نرى في أعمال إلهام مقدسي.[٣] وكان بينهم أيضاً عدد لا يستهان به من علماء الدين الذين سعوا لإرساء انبعاث إسلامي حداثي، من أمثال رشيد رضا، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وقد شارك العديد منهم، وليس كلهم، بنشاط، في الصراعات السياسية على مصير الدولة العثمانية بعد الثورات الدستورية في سنتَي ١٨٧٦ و١٩٠٨. وخلال الحرب العالمية الأولى، كان هؤلاء منخرطين إلى حد كبير في قضايا مجابهة الهيمنة الثقافية الأوروبية، وتحديث الفكر الديني، واستخدام اللغة العربية إلى جانب اللغة التركية في إدارة الدولة وفي المدارس الحكومية، وكذلك في قضايا الأراضي ومصير الفلاحين بعد استفحال هذه القضايا في إثر تطبيق قانون الأراضي لسنة ١٨٥٨ الذي حدد نظام ملكية الأراضي في العهد العثماني، وأيضاً في مسألة التسوية الخارجية والمديونية، وهي كلها قضايا راحت تشكل معالم "المسألة القومية" في سورية الكبرى. ويشير منير فخر الدين إلى جزء من هذه المجموعة النهضوية كطبقة **وصولية** لخدمة مصالح ذاتية، من خلال تبنّي مواقف دفاعية، لكن أبوية، بشأن قضايا الفلاحين.[٤] وكان أعضاء نخبة المثقفين هذه في جانبين متباينين فيما يتعلق بالمناقشات بشأن مسألة الهوية العثمانية والقضية اللامركزية والحكم الذاتي للأقاليم العربية، إذ بدأت أقلية صغيرة تطالب بصراحة بالدعوة إلى الانفصال عن السلطنة الحكومية.

إن استخدام مصطلح "علمي" في التقرير لتحديد دور البعثة هنا، غامض عن قصد، ويشمل معنى مزدوجاً، فهو يشير إلى القيادة الدينية للمجموعة ـ الشيخ الشقيري وزملائه من علماء الدين، وإلى مفهوم الحداثة الجديدة من العلم الموضوعي، وطابع التحقيق المتّبع في البعثة. وعلى الأرجح، فإن استخدام مصطلح "علمي" في العنوان كان أيضاً وسيلة متعمدة لصرف النظر عن الأهداف الدعائية للبعثة.

فعلى الرغم من أن مهمة الوفد كانت التعبئة السياسية والدعاية لقيادة جمعية "الاتحاد والترقي" وحملتها الحربية، فإن التقرير يكشف أكثر من هذا، ذلك بأن مجموعة من المقالات التي كتبها أعضاء قياديون من المثقفين في المحافظات، تسلط الضوء على وضع العلاقات العربية ـ التركية خلال الحرب، فضلاً عن الطريقة التي تم بها إدماج الهوية العثمانية في سورية. كما تحتوي هذه المقالات على ملاحظات عن المدن والقرى الأناضولية خلال الحرب، كالصناعات والحرف، وأوضاع الفلاحين الأناضوليين مقارنة بالمزارعين السوريين، وعن الاستعداد العسكري في الجبهة الشمالية، وعن المواقف التركية تجاه العرب، وطرق النقل والاتصالات. ومن أبرز سمات هذا التقرير استخدام اللغة أداة لبلورة الهوية الوطنية، وذكر الحاجة الواضحة إلى تعليم اللغتين، العربية والتركية، في وقت واحد في الأناضول، والروملي [أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا]، والمدارس العربية السورية كوسيلة لتعزيز المواطنة العثمانية في السلطنة. ويشير التقرير بوضوح إلى أن العرب والأتراك هم النواة الأساسية والحصن الأخير المتبقي من الدولة العثمانية، بينما لا تظهر المجموعات الإثنية الأُخرى إلاّ كمكونات شعبية عرضية في النسيج العثماني.

البعثة السورية ـ الفلسطينية

إن تسمية البعثة بالوفد السوري ـ الفلسطيني أمر لافت للنظر، بما أن تركيب المجموعة شمل شخصيات تركية وعراقية ولبنانية وحلبية وشرق أردنية، وغير ذلك، كما أن المحافظات العربية الشرقية التي شملت فلسطين وشرق الأردن، كانت معروفة ضمناً بـ "شام شريف" في الخطاب العثماني، ولم تكن فلسطين إلاّ مسمّى لإقليم متصرفية القدس ومناطقها الشمالية. وبالتالي، لماذا سُلّط الضوء على العنصر الفلسطيني في هذه المجموعة؟ لقد كان يُنظر إلى فلسطين بشكل دائم، على الأقل منذ حملة إبراهيم باشا في سنة ١٨٣١، كبلد داخل بلاد الشام، وغالباً ما كانت موجودة ككيان منفصل: "فلسطين هي شقيقة سورية"، مثلما أعلن تقرير الحرب العثمانية في سنة ١٩١٥،[٥] لكنها كانت عنصراً مقدساً واستراتيجياً للسلطنة: مقدسة بسبب مكانة القدس وقداسة الخليل، واستراتيجية لأنها كانت الجبهة الجنوبية في الحرب.

في حالة البعثة السورية، يبدو أن جمال باشا، المبادر إلى المشروع، كان عازماً على تعزيز شرعية ذات طابع ديني، مرتبطة بفلسطين باعتبارها الأرض المقدسة، وعلى تعزيز الدعم العربي لجهود الحرب العثمانية وللمبدأ العثماني كتحالف مكوّن من العرب والأتراك، ولهذا اختار الشيخ أسعد الشقيري، المفتي المعروف من عكا، لقيادة الحملة، مع مجموعة كبيرة من الموالين الناشطين في جمعية "الاتحاد والترقي"، والذين دافع كثيرون منهم عن حملة جمال باشا ضد القوميين السوريين العرب، ومنهم: محمد رفعت أفندي تفاحة وعبد الرحمن الحاج من مدينة نابلس؛ الشيخ إبراهيم العكي وعبد الرحمن عزيز من عكا؛ محمد أفندي مراد من حيفا؛ طاهر أفندي أبو السعود والشيخ علي الريماوي من القدس؛ الشاعر سليم اليعقوبي من يافا (وهو أصلاً من اللد).[٦] وكانت المجموعة خليطاً من المعلمين والشيوخ والصحافيين، فضلاً عن اثنين من الشعراء البارزين.

إن تفحّص عضوية البعثة يعطي انطباعاً أن الفلسطينيين شكّلوا المكون الديني للمجموعة (بقيادة الشقيري)، بينما شكّل السوريون جوهر المجموعة العلمانية (بقيادة كرد علي). ويجب أن نتذكر أن القيادة الجنوبية للقوات العثمانية كانت في فلسطين (غزة وبئر السبع)، وكانت حملة سيناء ضد الإنجليز معروفة بـ "جبهة سيناء وفلسطين". وقد تم تسليط الضوء على البعد الفلسطيني للمجموعة من خلال الخطب التي ألقاها أعضاء البعثة، والردود التي قدمها أنور باشا، وجمال باشا، ورئيس الحكومة، وولي العهد، والسلطان محمد رشاد نفسه، وجرى الربط في هذه الخطابات بين الدفاع عن الحرم الشريف والجبهة الجنوبية حيث كانت قضية فتح مصر مخططاً لها.[٧] وفي أثناء الكلام على تفتيش ورش العمل العسكرية في إستانبول، يشير التقرير إلى مشاركة المرأة الفلسطينية والسورية في العمل التطوعي للمجهود الحربي،[٨] لكن بمجرد وصول البعثة إلى جبهة جناق قلعة، أصبحت المجموعة تُعرف باسم الوفد السوري.

إن اثنين من شخصيات الوفد الفلسطيني، وهما الشيخ علي الريماوي وسليم أبو الإقبال اليعقوبي، يستحقان الدراسة لأنهما يمثلان المسار الفكري العربي الذي اعتمد الهويات العثمانية القوية بعد وصول مجموعة "تركيا الفتاة" إلى السلطة. لقد تلقّى كل منهما التدريب الديني إلى حد كبير، واكتسب سمعة كبيرة في النهضة الأدبية العربية في بداية القرن، وأظهرا هوية ثنائية

ربما تبدو متناقضة في وقت لاحق ـ إيمان قوي بالعروبة، يتمحور حول إحياء اللغة العربية كوسيط للنهضة العربية، مع الحفاظ بشكل متساوٍ على إيمان قوي بالعثمانية كأيديولوجيا سياسية.

الشيخ علي الريماوي (١٨٦٠ ـ ١٩١٩) من قرية بيت ريما، في متصرفية القدس، والتي يعود إليها مجموعة من العلماء المسلمين الموالين للنظام العثماني ـ وقد برز منها في النصف الثاني من القرن العشرين، عدد من القوميين العرب والناصريين والبعثيين والشيوعيين. وبعد أن أمضى الريماوي عدة أعوام في التدريب الديني في الأزهر (١٨٩٩ ـ ١٩٠٧)، بدأ حياته المهنية كاتباً في أولى المؤسسات الصحافية في فلسطين، واختارته السلطات العثمانية لإصدار جريدة "القدس الشريف"، الصحيفة الرسمية للحكومة في فلسطين (١٩٠٨ ـ ١٩١٣)، كما أصبح شريكاً لجرجي حنانيا، المفكر المسيحي الأورثوذكسي الذي نشر صحيفة "القدس"، أول صحيفة خاصة ناجحة في فلسطين (١٩٠٨ ـ ١٩١٤).

وكانت صحيفة "القدس" (يجب عدم الخلط بينها وبين جريدة "القدس الشريف" الرسمية)، صحيفة عثمانية أورثوذكسية، ففي حين دافع حنانيا عن مصالح البطريركية اليونانية الأورثوذكسية ضد الموجة المتصاعدة من التعريب، عالج الريماوي قضايا منبثقة من الإصلاح العثماني والسياسات التعليمية.[٩] وفي وقت سابق، في سنة ١٩٠٧، كان الريماوي قد أطلق صحيفته الخاصة به، "بيت المقدس"، وكان الرقيب في الفترة الحميدية أغلقها، وبعد رفع الرقابة، أسس صحيفة عربية ـ تركية أخرى، سمّاها "النجاح"، مستوحاة من مبادئ الثورة العثمانية، وكانت توصف بأنها صحيفة "سياسية أدبية علمية زراعية" أسبوعية. وبحسب يعقوب يهوشع، فإن هدف الصحيفة الحقيقي كان تحسين العلاقات بين حكومة جمعية "الاتحاد والترقي"، "وعرب البلاد الذين أعربوا عن خيبة أملهم من مبادىء الحرية التي أعلن عنها الدستور التركي."[١٠] وكرس الريماوي وقته بصورة خاصة للترويج لاستخدام اللغة التركية في المدارس العربية، ففي إحدى افتتاحياته التي نُشرت في سنة ١٩١٠ بعنوان "العربية والتركية شقيقتان فما بالهما تختصمان؟" يقول الريماوي:

> ربما صدر العدد الثاني أو الذي بعده من "النجاح" باللغتين العربية والتركية حسب أصل امتيازه، لتكون الخدمة مشتركة بين العنصرين العربي والتركي، إذ يجب أن تكون هاتان اللغتان أختين مشتركتين في خدمة الأمة والوطن، ونحن في هذا الدور، إلى التعاضد والتكاتف والاتحاد في غاية الحاجة، وهذا دليل على نهضة (النجاح) واستعداده لخدمة مشتركيه وقرّائه والأمة جمعاء.[١١]

لكن الريماوي، خلال فترة رئاسته صحيفتَي "النجاح" و"القدس"، كان ناقداً للحكومة أيضاً، وقد نشر عدة مقالات يهاجم فيها ما اعتبره عدم كفاية الإنفاق الحكومي على التعليم، والفساد في إدارة البلدية وإجراءات الشرطة، وانتفاء وسائل الراحة للصحافيين الذين يعالجون القضايا الجنائية، وعدم وجود المساءلة في الميزانية العامة.[١٢] وإلى جانب مهنته الصحافية، كان الريماوي معروفاً في المقام الأول كشاعر ومدرّس للأدب العربي، وقد درّس اللغة العربية وآدابها في عدد من المدارس، بما فيها

مدرسة "لئيمل" اليهودية لفتيات السفارديم، والتي تدعمها ألمانيا.

ووفقاً ليهوشع، فإن الريماوي أشاد بالتعليم اليهودي في مقالة نُشرت في صحيفة "هاحيروت" ("الحرية")، وهي لسان حال الطائفة السفاردية في فلسطين.[١٣]

وكانت تقارير كل من "البعثة العلمية" و"الرحلة الأنورية" مفعمة بقصائد الريماوي التي يمدح بها القوات المسلحة العثمانية، ويثني فيها على جمال باشا وأنور باشا، بصورة غير مسبوقة ربما، ما عدا الذي نقرأه في شعر سليم اليعقوبي.[١٤] وكثير من هذا الشعر ينتمي إلى ما يُعرف بأدب المدائح ـ شعر تأبيني (مدحي) مبسط للغاية، مع مشاعر مصطنعة، ويُرتجل في مناسبات سياسية في مديح القادة السياسيين والحكام. وفي حالة الريماوي، فإن هذه القصائد كانت وليدة اللحظة، فمع هزيمة القوات العثمانية في جنوب فلسطين، ودخول القوات البريطانية إلى القدس، تحوّل ولاؤه سريعاً، ونشرت الصحيفة الرسمية التي كانت تصدرها القوات البريطانية في الأراضي المحتلة قصيدة كتبها الريماوي احتفالاً بـ "التحرير" الذي جاء به النظام البريطاني الجديد:

هذا نهار فيه حُلّت قيودنا
وقد نشط الإقدام وانطلق الفكر
وحلّ محل الظلم عدل محبّب
وقد لاح من بعد الظلام لنا فجر[١٥]

يبدو أن هذا الشعر يختلف أيديولوجياً عن نثره الذي كُتب سابقاً، والريماوي، خلافاً لبقية رفاقه، لم يعش ليرى حقبة ما بعد العثمانيين في فلسطين، فبعد بضعة أشهر من نهاية الحرب، توفي جرّاء إصابته بالتهاب رئوي في بلدته بيت ريما.

وعلى النقيض من الريماوي، فإن سليم اليعقوبي حافظ على تعاطفه مع العثمانيين بعد سقوط سورية ودخول قوات التحالف، وهذا أمر عزاه كاتب سيرته سمير شحادة التميمي إلى عقيدته السلفية.[١٦]

ولد اليعقوبي في اللد (١٨٨١ ـ ١٩٤٦)، وعلى غرار الريماوي أُرسل كي يدرس في الأزهر، ودامت دراسته ١٢ عاماً برز خلالها كشاعر رائد في بلاد الشام حيث لُقّب بـ "حسّان فلسطين"، تيمناً بحسّان بن ثابت، شاعر الرسول.[١٧] وبعد عودته من القاهرة، عُيّن مفتياً ليافا التي نقل إليها مقر إقامته، وأنشأ حلقة دراسية في جامع حسن بك في المنشية.[١٨] وانضم اليعقوبي إلى البعثة العلمية كداعية إلى الجامعة الإسلامية، وفي أعوامه الأولى، كان قد خصص ديوان شعر للسلطان عبد الحميد بعنوان "حسنات اليراع" (١٩٠٧)، لكنه بعد ثورة سنة ١٩٠٨، أصبح مدافعاً قوياً عن "تركيا الفتاة".[١٩]

دعم اليعقوبي حملة جمال باشا ضد القوميين العرب في أثناء الحرب في سنة ١٩١٦، جنباً إلى جنب مع مفتي عكا، الشيخ أسعد الشقيري، وأصدر فتوى ضد الشريف حسين لتمرده على الدولة العثمانية،[٢٠] لكنه خلال البعثة العلمية، نأى بنفسه عن الدعاية الخطابية في كتابات المشاركين الآخرين، ويبدو أنه اكتفى بإلقاء مقطع من سطرين في مديح أنور باشا،[٢١] بيد أنه في رحلته الثانية إلى المدينة المنورة، كتب قصيدة أُخرى يدعم فيها الحملة العثمانية في مصر.[٢٢] وبين رفاقه في البعثة العلمية، كان اليعقوبي استثنائياً في الحفاظ على الدعم الصريح للعثمانيين بعد نهاية الحرب، ولذا عاقبه البريطانيون بشدة. وكان عبد القادر المظفر، مساعد جمال باشا، واحداً من أقرب رفاقه إليه، وبسبب "عنادهما"، نُفيا إلى سيدي بشر في الإسكندرية.[٢٣]

وأصبح اليعقوبي بعد الحرب، مقرباً من آل سعود، ويبدو أنه تأثر بالوهابية السعودية. وكإمام لجامع المنشية في يافا، فإنه كان يحرّض باستمرار ضد الصهيونية لمصلحة فكرة الرابطة الإسلامية،[٢٤] وبقي موالياً للعثمانيين، حتى بعد انتهاء دولة الخلافة.

صلاح الدين الجديد

كانت زيارة البعثة العلمية لوزارة البحرية في إستانبول مناسبة لإلقاء قصائد المديح الموجهة إلى جمال باشا، وقدّم كل من رئيس البعثة الشيخ الشقيري (باللغة التركية)، وناشر صحيفة "البلاغ" في بيروت الكاتب العراقي الداعية محمد الباقر (باللغة العربية)، مداخلتين رئيسيتين عن "المصلح العظيم"، مقارنَين إياه بالسلطان صلاح الدين الذي حرر القدس من الصليبيين، مثلما سيحرر جمال مصر من نير الإمبريالية. كما جرت الإشارة إلى إنجازاته، ومقارنتها بشكل ضمني وإيجابي بإنجازات طلعت باشا وأنور باشا، قائدَي جمعية "الاتحاد والترقي"، وحتى بالسلطان نفسه. وسرد التقرير سيرته كزعيم مستقبلي للدولة العثمانية، ووصف إنجازاته التاريخية من حيث الفطنة السياسية ومهاراته العسكرية باعتباره قائداً استراتيجياً، وكذلك أعماله العامة، وخصوصاً فيما يتعلق بإصلاحاته التعليمية. فإدارته استطاعت في سورية إصلاح الصدع الذي تسبّب به أسلافه، وتمكّن من إنشاء وطنية جديدة، جامعة بين الأتراك والعرب،[٢٥] وكانت مجالسه الأسبوعية في دمشق والقدس منتدى مفتوحاً لمظالم الجمهور، من دون أي وساطة.[٢٦]

وأُشير أيضاً إلى إدارة جمعية "الاتحاد والترقي" التي قامت بتحديث سورية

أحمد جمال باشا، قائد الجيش الإمبراطوري الرابع، القدس ١٩٠٦.
المصدر: البعثة الأمية إلى دار الخلافة الإسلامية، بيروت ١٩١٦.

وتطويرها من خلال أشغال جمال باشا العامة، والتي أنشأت نظاماً حديثاً للسكك الحديدية طوّر خط إستانبول ـ دمشق، إلى حيفا والقدس ويافا وبئر السبع والمدينة المنورة،[٢٧] وعبّدت آلاف الطرق التي تربط المناطق الريفية بمراكز المحافظات، والمناطق السورية بالأناضول. وفضلاً عن تزويد المدن الكبرى بالكهرباء، فإن إدارة جمال باشا أرست الأمن العام من خلال تسيير دوريات للشرطة، وعبر القضاء على اللصوصية في الريف.[٢٨]

محمد كرد علي والرابطة العثمانية

كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) هو أحد المؤلفين الرئيسيين لتقرير "البعثة العلمية"، وكاتب دمشقي من أصل شركسي ـ كردي، ينحدر من السليمانية في شمال العراق، وكان ناشراً لصحيفة "المقتبس" الدمشقية، إحدى الصحف اليومية الأكثر تأثيراً والأكثر تعرضاً للرقابة في الفترة الحميدية، وكان

شريكه فيها شكري العسلي الذي أعدمته محاكم جمال باشا العسكرية في عاليه في سنة ١٩١٦. وكان كرد علي مؤسس مجمع اللغة العربية في دمشق، ومؤلف موسوعة "خطط الشام" التي تناول فيها الجغرافيا الاجتماعية في سورية، وكان رائداً في معالجتها، وقد أصدر كتابه بعد صدور كتاب "الخطط التوفيقية" لعلي مبارك.

وصف كرد علي صحيفته "المقتبس" بأنها "معتدلة سياسياً، وطنية، وناقدة لممارسات الإدارة العثمانية في الحكم، لكننا لم نهدف إلى الانفصال عن الأتراك."[٢٩]

ففي سيرة ذاتية كتبها عندما كان في الثمانينيات من عمره، يشير إلى تدريبه الإسلامي المبكر في دمشق (على يد الشيخ طاهر الجزائري)، وفي القاهرة (على يد محمد عبده)، على أنه حاسم ومهم في تشكيل توجهه الفكري نحو العثمانية، ونحو الإصلاح الإسلامي، والقومية العربية.[٣٠]

ومن حيث الانتماء الفصائلي، فإنه كان أحد الموالين للفكرة العثمانية، وانتمى مدة ١٢ عاماً (١٨٩٦ ـ ١٩٠٨)، إلى جمعية "الاتحاد والترقي"، لكنه بعد الثورة الدستورية، لم يعد راضياً عن الطابع القمعي للجمعية، ورأى أن "انحرافها عن أهدافها الأصلية أرغم بعض الأتراك والعرب من إستانبول ودمشق على تشكيل حزب ليبرالي جديد عُرف باسم حزب الحرية والائتلاف."[٣١] وطاردته السلطات هو وصحيفته بشكل مستمر، وفي سنة ١٩٠٩، اتهمه الوالي المحلي بدعم استعادة النظام الحميدي، الأمر الذي اضطره إلى الفرار إلى فرنسا؛ وتورّط مرة أُخرى في سنة ١٩١٢ لنشره مواد تمس بالذات السلطانية، وهو ما جعله يبحث عن ملجأ في مصر.[٣٢] وجاءت الحرب فأغاثته وصالحته مع النظام والوالي العثماني الجديد في دمشق، وفي إثر ذلك، شجّعه صديقه الشخصي خلوصي بك على إعادة إطلاق صحيفة "المقتبس" على أساس جديد. وساعدته نتائج غارة للشرطة على وثائق القنصلية الفرنسية في بيروت بشكل غير متوقع، إذ جرى الكشف عن تعاون أبرز المثقفين العرب مع السلطات الفرنسية في بداية الحرب، وقد استخدم جمال باشا هذه الوثائق لمتابعة حملته ضد القوميين العرب. وبين الوثائق التي كُشف عنها أن دبلوماسياً فرنسياً قدّم تقريراً عن زيارته كرد علي في منزله في دمشق، لمعرفة إمكانات دعمه الموقف الفرنسي، ذاكراً أن كرد علي تحدث إليه عن ضرورة تغيير فرنسا سياساتها في الجزائر وتونس.[٣٣] وظهرت مذكرة أُخرى أُرسلت عن طريق السفير الفرنسي في إستانبول إلى مكاتب القنصل الفرنسي المحلي، تصنّف كرد علي على أنه "شخص غير موثوق به ومناصر للحكومة." ووفقاً لهذا الأخير، فإن هذه

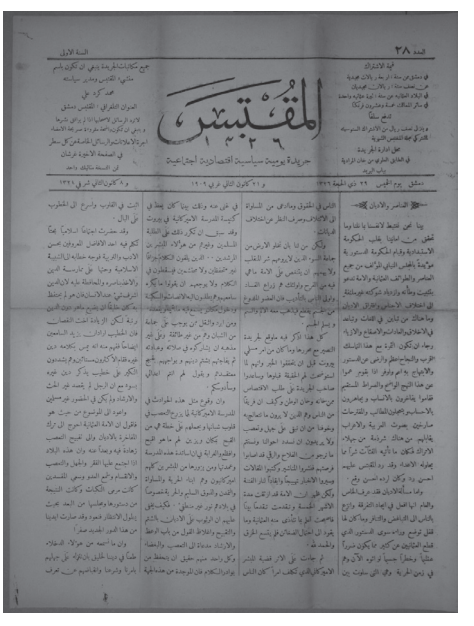
المقتبس
جريدة يومية سياسية اقتصادية أدبية اجتماعية

صحيفة كرد علي "المقتبس"، دمشق ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٠٩.
المصدر: الأرشيف الإلكتروني الخاص بمؤسسة الدراسات الفلسطينية.

التقارير أنقذته من حبل المشنقة، وأن جمال باشا نفسه استدعاه وحثّه على نشر صحيفة "المقتبس"، "عندما أدرك تأثير هذه الصحيفة في الجمهور السوري والعربي."[٣٤]

وقد تكون مشاركته في تأليف تقرير البعثة العلمية محاولة مقصودة لتعزيز صدقيته كموالٍ عثماني، نظراً إلى سمعته كشخصية معارضة، وإلى استمرار إغلاق صحيفته من جانب السلطات لانتقادها سياسات الحكومة، لكنه بعد أعوام، ادعى أن دفاعه عن جمال باشا، والبعثة، فُرض عليه من طرف الشقيري والإدارة العثمانية.[٣٥] ومع ذلك، فإن الفصول التي ألّفها كرد علي في خلاصة التقرير تزودنا بنظرة كاشفة إلى مواقف المثقفين العرب تجاه "الرابطة العثمانية"، وإلى العلاقة بين العرب والأتراك خلال أول أعوام الحرب.

وفي دراسة عن التشكيل الفكري لكرد علي، تتبّع سمير صيقلي مسيرته الصحافية خلال الأعوام الحاسمة التي تفصل بين صعود جمعية "تركيا الفتاة" ونشوب الحرب.[٣٦] ففي سنة ١٩٠٦، انتقل كرد علي إلى القاهرة حيث نشر صحيفة "المقتبس" التي أرادها لساناً يعبّر عن الإصلاح والتجديد الإسلاميين، ثم عاد إلى دمشق في سنة ١٩٠٩، حيث أعاد إطلاق الصحيفة بهدف نشر حداثة الثقافة القومية العربية في سياق التكامل العثماني.[٣٧] وبالنسبة إليه، فإن هذا النضال يجب أن يكون من أجل ثقافة تقترض بشكل انتقائي من عناصر الحضارة الأوروبية، من دون أن تفقد جوهرها الإسلامي، داعياً إلى ما سمّاه "حضارة عربية ـ غربية جديدة."[٣٨]

وكانت علاقة هذا الإحياء العربي بفكرة العثمانية أكثر إشكالية في عمل كرد علي. ففي فترة ما قبل التنظيمات، اعتبر الكاتب العنصر التركي داخل المجتمع العثماني أمّة بربرية (التتار) تمتاز بمهارات تنظيمية عسكرية، واكتسبت شرعيتها من الخلافة الإسلامية. وكان التراجع العثماني متجذراً في عدم قدرة المجتمعات الشرقية على مواجهة تحديات التفوق الاقتصادي والتكنولوجي الغربي، وفي استيلاء الإقطاع على أراضي الفلاحين بعد قانون إصلاح الأراضي العثماني لسنة ١٨٥٨.[٣٩]

وثمة سبب آخر مهم ومتجذّر للتخلف العثماني، وهو ما اعتبره فشل اللغة التركية في التكيف مع الحضارة الحديثة. فعلى العكس من اللغة العربية، فإن "اللغة التركية ليست لغة دين ولا لغة علم، ولا لغة حضارة قديمة، ولا مدنية معروفة كالعربية التي شهد أهل الأرض بأمجاد أهلها وحضاراتهم."[٤٠] وفي النضال من أجل حضارة غربية ـ عربية ـ عثمانية توليفية، كان كرد علي حريصاً على النأي بنفسه عن المخططات الإمبريالية للسيطرة على السلطنة العثمانية، وخصوصاً المحافظات العربية منها، لكنه سعى في الوقت نفسه للحصول على فوائد التقدم التعليمي والتكنولوجي الأوروبي،[٤١] ورأى ضرورة الدفاع عن المجال العثماني، والخلافة، كوسيلة من وسائل الحفاظ على وحدة السلطنة والأراضي السورية. ومع أنه نظر بشكل إيجابي إلى المؤسسات التعليمية الأوروبية والغربية للحصول على الفوائد التي جَنَوها من خلال نشر التربية الحداثية، إلاّ إنه رأى أنه فقط من خلال تعزيز التعليم التركي والعربي الأصلي يمكن للعثمانيين الحفاظ على حضارتهم، ولهذا السبب، عارض بشدة تغيير لغة التدريس في كلية القديس يوسف اليسوعية وكلية البروتستانت السورية (أي الجامعة الأميركية) من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية، على التوالي، في ثمانينيات القرن التاسع عشر.[٤٢]

وخلال أعوام الحرب، يبدو أن وجهة نظر كرد علي بالنسبة إلى إحياء اللغة والثقافة اتخذت منعطفاً لمصلحة العثمانية الجديدة التوليفية. وقد أجبرته رحلته إلى الأناضول وغاليبولي في أثناء الحرب على إعادة النظر في مواقفه الثقافية تجاه القدرات التركية على تحديث الثقافة العثمانية والمجتمع في ظل الحصار. وكان الهدف من وراء وصفه القدرات الصناعية للعمال الأناضوليين، والاستعداد العسكري للقيادة، تبديد الشائعات السائدة عن الفوضى التنظيمية في القوات المسلحة، وكذلك تلك المتعلقة بوجهة النظر العربية من "الكسل التركي". وبينما عارض بحدة التتريك كسياسة دولة من جانب جمعية "الاتحاد والترقي"، بدأ الآن يعمل لمصلحة ثنائية اللغة كأداة للوحدة العثمانية.

أمّة عثمانية جديدة شرقية ـ غربية

كان لتقرير البعثة هدفان أساسيان: الأول، اطلاع القارئ العربي على الأوضاع في إقليم الأناضول، والثاني، تقويم الاستعداد العسكري في الجبهة، وقد ساهم كرد علي في صوغ أغنى المواد الإثنوغرافية في التقرير.[٤٣] ومع أن مبدأ المواطنة المشتركة والأخوة العثمانية كان متغلغلاً في خلاصة التقرير، إلاّ إن جميع الكتّاب كانوا على بيّنة من الانقسام العربي ـ التركي، فضلاً عن التباينات الإثنية التي بدأت تكتسب ملامح تحريضية خلال الحرب. وثمة غياب للمرجعية التي تشير إلى التوتر العرقي والعداء ضد العرب اللذين بدآ يطفوان على السطح بعد محاولة أنصار السلطان عبد الحميد استعادة السلطة في سنة ١٩٠٩ في إستانبول ومراكز أناضولية أُخرى، وذلك بسبب ربط العرب بـ **النظام القديم** وبمستشاري السلطان الرجعيين.[٤٤] "لقد عومل وفدنا السوري ـ الفلسطيني [في الأناضول] بكرم عثماني، وضيافة شرقية، وأخوة إسلامية، التي كانت شاهداً على الحب والولاء المتبادل بين الأتراك والعرب ـ أكبر مكوّنين، وأكثر الشرائح المتقدمة فكرياً للدولة."[٤٥] وعلى النقيض من الفرد العربي، فإن التركي أكثر انضباطاً والتزاماً بالقانون،[٤٦] فهو، في الجبهة الحربية، وفي الوظائف المدينية، يذعن لحكم رئيسه ومستخدمه، وهو "في الحرب، على استعداد للموت من أجل القضية"، في إشارة إلى النسبة العالية من الانهزامية والفرار من الجبهة في صفوف الجنود العرب.[٤٧] أمّا في مسائل الدين، فإن الأتراك مفتونون بالعرب، ويعتبرونهم مصدر القداسة والدين، "لكن المتعلمين من الأتراك لديهم فضول لمعرفة الأوضاع الحالية للأراضي العربية، بينما يسأل الناس التقليديون عن الماضي."[٤٨]

عندما وصلت البعثة إلى إستانبول، أُعجب أعضاؤها بطابع العاصمة الأوروبي الذي تجلى بوضوح في مبانيها الفخمة، وشوارعها الواسعة والنظيفة، ونظام النقل الشامل. وكان كرد علي، قبل ذلك ببضعة أعوام، قد أشار إلى أن الزائر يُصدم بمقدار القذارة والفقر في العاصمة، أمّا اليوم (١٩١٦)، فإن الطبقات الدنيا ارتقت، وتتمتع بدرجة من الازدهار الذي أخذ ينتقل إلى المحافظات الأُخرى.[٤٩] ففي الساحة المركزية، قد يتخيّل المرء نفسه في بودابست، أو روما، أو مرسيليا، ذلك بأن السكان متنوعون للغاية في المظهر واللباس، كما أن نظام وسائل النقل يربط الآستانة بحراً وبراً بأجزاء متعددة من الإمبراطورية والعالم. أمّا فيما يتعلق بمجال التجارة، فإن اليونانيين والأرمن كانوا يسيطرون على المدينة في الماضي القريب، لكن هذه الهيمنة اختفت

حالياً، لأن التجار ورجال الأعمال الأتراك بدأوا يشقون طريقهم صعوداً، "وأولئك الذين يتابعون الشؤون المالية باتوا يقرّون الآن بأن العائلة التركية متفوقة على مثيلاتها الرومية (اليونانية) والأرمنية والعربية والكردية، كما أن وضع الرجل التركي، بصورة عامة، متفوق على بقية المواطنين، وهو يستثمر بشكل كبير في تعليم أطفاله، فضلاً عن أن القرب من أوروبا (أو من الأقليات الأوروبية في المدن العثمانية)، هو عامل رئيسي في هذا المجال ـ وبالتالي فإن أزمير أكثر تقدماً من إسكي شهير، وبورصة متفوقة على قونية."[٥٠]

وكثيراً ما وُصفت البعثة إلى جناق قلعة بسياحة دينية وعلمانية اعتبرها المؤلفون حجاً:

> إن سياحتنا هذه من ربوع الشام إلى دار الخلافة فدار الحرب في جناق قلعة لمطلب فيه الميزتان القديمة والحديثة. فيه الروح الدينية والروح المدنية. فيه تقوية الرابطتين الدينية والوطنية، ونيل السعادتين الدنيوية والآخروية.[٥١]

هذه الجولة، من وجهة نظر كرد علي، ساعدت على جمع العنصرين المركزيين في الإمبراطورية: العرب والأتراك، وسمحت لكل مجموعة بالتعرف إلى حياة الأُخرى. كما أن ظروف الحرب دفعت العثمانيين إلى طلب الصداقة من الشعب الألماني الذي كانت "قيادته، خلافاً لحكومة حلفاء الإمبريالية، ليس لديها دوافع خفية في المجالات العثمانية."[٥٢] وسرّعت الحرب في اندماج الشعوب العثمانية بعضها في بعض، وفي بحثها عن الحداثة في العالم الجديد، وساعدت العرب والأتراك على خلق توليفة جديدة: "أمة من الشرق والغرب، تجمع بين القديم والجديد، وتدافع عن مجالها بالقوة من أجل الحفاظ على طابعها الخاص بها."[٥٣]

وكرّس محمد كرد علي عدة صفحات لوصف الصناعات الحربية بالتفصيل، والتي كانت في رأيه تسرّع في تحرير الأناضول من الاعتماد على المنتوجات الغربية، وتوقّع أنه خلال عقد أو عقدين من الزمن، "سنكون قد لحقنا بأوروبا، وسنصبح دولة صناعية وزراعية حديثة."[٥٤]

"تتريك العرب، تعريب الأتراك"

إن مسألة الحكم الذاتي في استعمال اللغة كانت تشكّل العامل الرئيسي للنزاع في المحافظات العربية بعد الثورة الدستورية. والتهمة المتكررة التي وجهها القوميون العرب ضد النظام الجديد، كانت فرض سياسة التتريك في المؤسسات الإدارية والقانونية والتعليمية من جانب قادة

عبد الباسط الأنسي، محرر صحيفة "إقبال".
المصدر: البعثة الأمية إلى دار الخلافة الإسلامية، بيروت ١٩١٦.

جمعيتَي "الاتحاد والترقي" و"تركيا الفتاة".[٥٥] وقد اعترض على هذه التهمة العديد من أعضاء البعثة، بل إن عدداً قليلاً منهم رأى في التتريك، وفي الاستخدام المتزايد للغة التركية في المجالات الإدارية والتعليمية، دليلاً على التقدم، وخطوة نحو اندماج مختلف الجماعات الإثنية بعضها في بعض، في سياق مبدأ العثمانية. ولاحظ محمد الباقر وعبد الباسط الأنسي وحسين الحبّال أن هناك ميلاً ونزعة متزايدَين بين الأتراك إلى تعلم اللغة العربية، وأن السوريين يتواصلون بسهولة باللغة التركية. لقد كان كرد علي مفتوناً بثنائية اللغة في المناطق الحدودية، وأضاف: "رأيت في طرسوس وأضنة أمراً سرني وهو أن معظم أهلها يتكلمون باللغتين التركية والعربية مع أن بلادهم تركية."

ورأى محمد الباقر أن "أحسن حلّ لمسألة اللسان الاجتماعية أن يتترّك العرب ويتعرّب الأتراك، أي أن يتعلم أهل كل عنصر لسان الآخر، إذ لا مناص لكل منهما من هذا الأمر، فالعربية لسان دين الإسلام وتاريخ المسلمين، والتركية لغة السياسة والإدارة."[٥٦]

وعلى الرغم من استخدام تعابير التتريك والتعريب، فإن من غير المحتمل أن يكون المؤلف قد قصد الاندماج الإثني بين الجماعتين، بل إنه في الأغلب كان يطالب بسياسة ثنائية اللغة. ويتضح ذلك من الفقرة التالية التي يقدّم فيها توصيات متعلقة بالسياسة العامة: على الحزب الحاكم (جمعية "الاتحاد والترقي") تنفيذ سياسة تعليمية جديدة في جميع المحافظات العثمانية ـ تعليم العرب اللغة التركية، "بعد أن يكونوا قد أتقنوا لغتهم الخاصة بهم"، بينما يتعلم الأتراك بالمثل اللغة العربية كلغة ثانية.[٥٧]

ومن شأن هذا الإجراء أن يكون مساهمة إيجابية في حلّ "سياسة العناصر العثمانية"، فقد لاحظ أعضاء البعثة أنه لا يوجد مشكلة عربية في الأناضول، ولا أي تمييز بين العرب والأتراك.[٥٨] والافتراض هنا هو أن هذه مشكلة سورية ـ عربية، ولهذا، آمن كرد علي بأن على القيادات التعليمية في السلطنة أن تتحرك بسرعة لزرع سياسة ثنائية اللغة، "لأن أكبر مشكلة نواجهها هي جهل الآخر ـ إخواننا في الإيمان والمواطنة."[٥٩]

المصلحة السورية في الدفاع عن غاليبولي

تُرك للشيخ أسعد الشقيري، قائد البعثة، التعبير عن المصلحة السورية ـ الفلسطينية في الدفاع عن السلطنة من الانهيار في

الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش الرابع، والقيادي في "البعثة العلمية"، عكا ١٩١٦.
المصدر: البعثة الأمية إلى دار الخلافة الإسلامية، بيروت ١٩١٦.

الدردنيل. وقدّم حجته في خطاب طويل ألقاه **باللغة التركية** في "سينما جناق القلعة" في دمشق أمام حشد كبير ضم جمال باشا، ومحافظ جبل لبنان علي منيف بك، ووالي سورية عزمي بك، وحاكم القدس مدحت بك، وكثيرين آخرين من القادة المدنيين والعسكريين. وشمل الحضور أيضاً الأمير فيصل ابن "جلالة حسين بن علي، أمير مكة المكرمة"، وقد جرى هذا الاحتفال عشية إعلان هذا الأخير التمرد على القيادة العثمانية.[٦٠]

بدأ الشقيري خطابه بالإشارة إلى الشائعات التي تحدثت عن انهيار وشيك للجبهة الشمالية، وتأثير هذا الانهيار في سلامة السلطنة وأمنها ككل، وشرح بالتفصيل الجهد الهائل للرجال والنساء الذين يكدحون في الحقول والمصانع لدعم القوات المسلحة، وهو ما لاحظه هو ورفاقه في جميع أنحاء الأناضول، وأشار إلى الجيش الذي لا يُقهر، والذي تم حشده في الدردنيل دفاعاً عن السلطنة،[٦١] وسخر من الشائعات التي سادت العاصمة وفحواها أن السوريين "منهمكون بلذائذهم، مبتلون بحظوظهم، غير مبالين بما يتولد من الاستيلاء على مقر السلطة، وما يحصل من سوء التأثير وضرره ديناً وسياسة" ـ في إشارة مبطنة إلى الحركات الانفصالية العربية.[٦٢] وبتنظيم هذه البعثة، وبجلب نخبة مختارة من أعيان ووجهاء سورية إلى الأناضول والجبهة، نجح جمال باشا في تبديد هذه الشائعات، وفي توجيه رسالة من التضامن والدعم الاتحاديين للمجاهدين في جناق القلعة. وهاجم الشقيري المعارضة لقولها إن البعثة ما هي إلاّ تزلف صاغر للسلطان وحكومته، وإن أعضاءها يسعون ليفوزوا بالحظوة لدى السلطات، وذكّر أعداءه بأن ولاء أعضاء البعثة العثماني أدى إلى التقدم المادي للأقاليم العربية ـ الأمر المتمثل في الطرق والسكك الحديدية والمدارس والمستشفيات التي أقامها العثمانيون في سورية، فضلاً عن حماية الأرض المقدسة من الغزو الأجنبي. وكان الشقيري يشير إلى التوسع الأوروبي في فلسطين، وإلى الزيادة الكبيرة في الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية، وقد نبّه إلى خطر أن يصبح المسلمون في القدس أقلية ـ لكن بفضل وجود الربّان الماهر، فإن هذا الأمر تم تداركه وعَكْس اتجاهه. كما أن إنشاء الكلية الصلاحية التي تضم مئات من علماء المسلمين الذين يجرون دراسات متقدمة، كان علامة فارقة في هذا النضال من أجل الأمة، ولتوحيد الجامعة الإسلامية.[٦٣]

وشنّ الشقيري أيضاً حملة على الجنود العرب الذين لاذوا بالفرار من الخدمة العسكرية، والذين انتقدوا تشكيل الطوابير العسكرية العاملة ("طوابير العملة") في سورية وفلسطين، المسماة "كتائب العمل التطوعي"، والتي تتألف من المجندين المدنيين الأكبر سناً، ومن المسيحيين واليهود الذين حفروا الخنادق وقاموا بمهمات وضيعة في الجبهة،[٦٤] مذكّراً الجمهور بأن الرسول نفسه كان يعمل في حفر الخنادق في الحرب ضد قريش.[٦٥] وأنهى الشقيري كلمته بتحية الأمير فيصل "نجل مولانا وسيدنا الشريف حسين أمير مكة" الذي كان قد حشد قواته الحجازية في صفوف الجيش الرابع (بإمرة جمال باشا) في الحملة العثمانية على قناة السويس ضد الإنجليز أعداء الله، واختتم قائلاً: "فحيا الله الأمير وابنه، وسلام الله على بني هاشم ومَن تبعهم وشايعهم."[٦٦]

وبينما كانت الأخوة العربية ـ التركية هي الموضوع الذي شدد عليه معظم

المتحدثين في المناطق السورية، فإنه بمجرد وصول الوفد إلى الأناضول، أصبحت فكرة الجامعة الإسلامية هي المهيمنة، وكان هذا ملحوظاً بصورة خاصة في العديد من حفلات الاستقبال التي أقامتها للسوريين الفروع المحلية التابعة لجمعية "الاتحاد والترقي". ففي إستانبول، عيّن حبيب أفندي العبيدي المتحدث باسم المركز العمومي لجمعية "الاتحاد والترقي"، الخطوط العريضة لتطور سياسات الحزب الإسلامية، وكان بهذا يرد جزئياً على اتهامات الحزب بالعلمانية والتخلي عن الخلافة، وهما تهمتان استخدمهما الهاشميون لتبرير انفصالهم عن القيادة العثمانية في سنة ١٩١٦. فخلال الفترة الحميدية، قال العبيدي: "سعى الأنصار لتحقيق هدفين رئيسيين هما: تقويض أساس الاستبداد، وإنشاء الجامعة الإسلامية"، وقال إن نشر هذه الأفكار كان سرّياً، لأن العدو كان له عيون في كل مكان، لكن مع الثورة الدستورية، بدأوا علناً بمهاجمة الديكتاتورية الحميدية، غير أن الفترة الزمنية لم "تسمح لتأكيد هدفنا الثاني، وهو تعزيز الاتحاد الإسلامي."[٦٧] ومع مرور السنين، أصبح من الممكن رفع راية الاتحاد الإسلامي، حتى أصبحت سمة الحزب الأساسية.[٦٨]

الروابط الإسلامية

ما أغفل العبيدي ذكره في هذا الخطاب هو أن فكرة الاتحاد الإسلامي سبقت جمعية "الاتحاد والترقي"، فقد كانت إحدى الأفكار الرئيسية التي روّجها الإمام جمال الدين الأفغاني، وتبنّاها عبد الحميد نفسه، ثم أحيتها في وقت لاحق جمعية "الاتحاد والترقي"، وخصوصاً جمال باشا وأنور باشا خلال الحرب، لتعبئة الدعم من المجتمعات الإسلامية داخل السلطنة العثمانية وخارجها، وباتت الآن بصورة خاصة، تُستخدم لتعزيز أواصر التضامن مع إستانبول في الأقاليم العربية، وفي التماس الدعم للمجهود الحربي العثماني من الهند وبلاد فارس وإندونيسيا. وأدى جمال باشا دوراً رئيسياً في ترويج الأواصر الإسلامية في أثناء الحرب كوسيلة للتعبئة، وفعل ذلك من خلال عمله التربوي في كلية الصلاحية في دمشق والقدس، وعبر الدعاية ضد البريطانيين، وضد استخدام القوات الإسلامية من مصر والهند في حملة الحلفاء، كما أسس صحيفة "الشرق" في دمشق (بدعم حكومي)، وعهد بتحريرها إلى كل من محمد كرد علي وشكيب أرسلان، لنشر فكرة الوحدة الإسلامية بين العثمانيين.[٦٩] ودوّن كرد علي إشارة إلى هذه الجريدة في مذكراته:

> هذا العام (١٩١٥)، أطلقت الحكومة صحيفة "الشرق" بدمشق بتحريض من ألمانيا. طلبوا مني أن أكون رئيس التحرير، وهو ما فعلته لفترة من الوقت. طلب مني أحمد جمال باشا إزالة اسمي من الترويسة لصحيفة "المقتبس"، لضمان تداول أفضل لصحيفة "الشرق"، والتي استمرت في الظهور حتى نهاية الحرب. وكانت في الأساس دعاية ألمانية ـ تركية تستهدف الجماهير في العالم العربي والدول الإسلامية.[٧٠]

يقول الباحث محمد طلحة جيجك إن الغرض الرئيسي من الصحيفة كان مواجهة نفوذ الحركة القومية العربية في سورية التي هيمنت على الصحافة المحلية، لكن مضمونها كان يتمحور حول المصير المشترك للمسلمين العثمانيين في مواجهة

الحملة الإمبريالية، من خلال تأكيد الحاجة إلى إنقاذ مصر من النير البريطاني.[٧١] وكان لصحيفة "الشرق" أيضاً محتوى ثقافي هو إظهار المصالح المشتركة لجميع العرب السوريين في دعم الدولة العثمانية في "مهمتها الحضارية" لاستعادة ماضي المسلمين المجيد، ولتحسين الأوضاع المادية للشباب السوري من خلال التعليم والتنمية العلمية.[٧٢] وبعد تمرد الشريف حسين، خصصت الصحيفة جزءاً كبيراً من تغطيتها للكلام على "خيانة الهاشميين"،[٧٣] ومع ذلك، من الواضح أن أهم مشكلات هذه الصحيفة، كأداة للدعاية لجمعية "الاتحاد والترقي"، كان الحفاظ على الدعم العربي لفكرة العثمانية في الوقت الذي تتواصل الحملة القمعية ضد القوميين العرب.

البعثة الحجازية: دفاعاً عن الهوية العثمانية

بعد بضعة أشهر من ظهور تقرير البعثة العلمية، قام محمد كرد علي بتأليف تقرير ثانٍ بعنوان "الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية".[٧٤] ومثلما يشير العنوان، فإن هذا التقرير هو في الأساس تكريم لأنور باشا الذي لا يكاد يُذكر في التقرير السابق، لكنه على عكس تقرير جناق قلعة، افتقر إلى البعد التحليلي، وظهر أساساً كتحية دعائية مبالغ بها لأنور باشا. وقد ندم كرد علي بعد أعوام على صلته بهذا التقرير، واصفاً إياه بأنه "من كتب الدعاية السمجة في الحرب الممقوتة."[٧٥] وهذا التقرير الثاني يتضمن وصفاً مفصلاً لجولة أنور باشا في لبنان وسورية وفلسطين وسيناء والحجاز في كانون الثاني/يناير ١٩١٦، وكان يرافقه في جزء من جولته أحمد جمال باشا، وجمال باشا المرسيني (قائد الفيلق الثامن في الجيش الرابع)، وحسن بك الجابي، محافظ يافا.

هذا التقرير تكريم مستفيض لأنور باشا يظهر فيه بطلاً عثمانياً صاعداً ونجماً،[٧٦] ففي الحفل الخاص الذي أقيم في دمشق مع بداية الحملة الثانية، وصفه عبدي توفيق بك بـ "المدافع عن العثمانية الأبدية المعظّمة"، وقد استخدم توفيق بك مصطلحَي عثمانليليك (Osmanlilik) باللغة التركية، و"العثمانية" باللغة العربية، مثلما يبدو في ترجمة الخطاب. والغريب أن هذه واحدة من الحالات القليلة التي يستخدم فيها التقريران هذا المصطلح في إشارة إلى أيديولوجيا "الاتحاد والترقي"، بينما كان التأكيد في أماكن أُخرى منصباً على التقارب الإسلامي لسائر الإثنيات في الأراضي العثمانية.

ويُنسب إلى أنور باشا هنا أربعة إنجازات كبرى، يبدو أنها تتجاوز مآثر جمال باشا: ١) هو الزعيم الرئيسي للانقلاب العثماني (أي الثورة الدستورية في سنة ١٩٠٨)؛[٧٧] ٢) قاد المسيرة على العاصمة في ١٣ آذار/مارس ١٩٠٩ لإخماد شرارات الرجعة الاستبدادية التي تهدف إلى إرجاع السلطان عبد الحميد إلى الحكم، ولخلع هذا الأخير؛[٧٨] ٣) قاد تحالف القبائل السنوسية في شمال أفريقيا لتحرير ليبيا من نير الاحتلال الإيطالي؛[٧٩] ٤) وأخيراً، كوزير للحرب، قاد الدفاع عن الدردنيل ضد الغزو البريطاني والأوروبي، وهزم الهجوم على جناق قلعة (والغريب أن اسم مصطفى كمال، قائد الدفاع عن الدردنيل، لم يرد في هذا السياق).[٨٠]

وبالمقارنة مع إنجازات أنور باشا الأربعة، يصبح جمال باشا فقط "المصلح العظيم"، والمحرر المستقبلي لمصر من نير الاحتلال البريطاني، وهو أمر سرعان ما أصبح حلماً وهمياً.

الحلقة الفلسطينية:
الفاتح في مقابل المصلح

على العكس من تقرير البعثة العلمية الذي يحتوي على وصف تفصيلي لأقاليم الأناضول وحالة التأهب العسكري في الدردنيل، فإن "الرحلة الأنورية" تهدف إلى إظهار الدعم الشعبي للقيادة العثمانية في سورية وفلسطين، (وإلى حد أقل ـ على الرغم من العنوان ـ في الحجاز) وتغطية فلسطين في هذا التقرير واسعة جغرافياً، وكثيراً ما يشار إليها فيه على أنها "شقيقة سورية"، وليس امتداداً لها.[٨١] ومع أن يافا لم تكن مدرجة في خط سير الرحلة، إلاّ إن أنور باشا وجمال باشا، وبناء على دعوة المحافظ، حسن بك الجابي، تحولا إليها في بداية الرحلة، وتبيّن أن هذا الأخير أراد من قيادة جمعية "الاتحاد والترقي" الاحتفال بالخطة الجديدة التي برزت يافا من خلالها كأسرع مدن فلسطين نمواً، وكواجهة للحداثة العثمانية ـ العربية في فلسطين، فقد طُلب من أنور باشا افتتاح شارع جمال باشا الذي شُقّ حديثاً، ووُصف بأنه أوسع الشوارع في سورية الكبرى (بعرض ٣٠ متراً). وتضمن الحفل هتاف عشرات الآلاف من الناس الذين اصطفوا على طول محطة الرملة، والسرايا، وساحة الساعة، انتهاء بحدود تل أبيب حيث سيتم تدشين مسجد حسن بك في المنشية،[٨٢] الذي عُرّف في التقرير باسم جامع جابي الجديد.[٨٣] ووقف الموكب أيضاً على مشارف يافا بجانب بيارات البرتقال الشهيرة في المدينة، كي يتمكن القائدان من أخذ عينات من البرتقال الشهير.[٨٤]

وألقى سليم اليعقوبي قصيدة ترحيبية مطلعها:

هذي فلسطينُ فازتْ عُرْبُها بِكُمُ
يا "أنورَ" الناسِ من تُرْكٍ ومن عَرَبِ
واصلْتَها اليومَ، فافترَّتْ مياسِمُها
كالخَوْدِ، تفترُّ يومَ الوصلِ عن شَنَبِ[٨٥]

ما تجدر الإشارة إليه، أن أنور باشا استُقبل كقائد **عسكري**، بينما رُحِّب بجمال باشا على أنه **المصلح** العظيم.[٨٦] وكان أبرز ما في هذه الرحلة تخييم البعثة في بئر السبع، وزيارة المنشآت العسكرية في شمال سيناء. لقد أصبحت بئر السبع مفخرة للتخطيط العثماني الحديث، وأصبح خط سكة حديد الحجاز والطرق المعبّدة التي تربط جنوب فلسطين بباقي أنحاء سورية من المفاخر الهندسية الكبيرة. يقول التقرير: "أصبح الآن ممكناً اجتياز الطريق بين بير حسنة [موقع عسكري في صحراء سيناء] وبئر السبع في أربع ساعات، وذلك بسبب كفاءة الجيش الرابع الذي أنجز المهمة الهندسية في وقت قياسي، الأمر الذي جعل هذه الطرق الصحراوية سالكة، بينما لم يكن ممكناً في السابق استخدامها حتى بواسطة أكثر آليات النقل بدائية."[٨٧] ويُحسب لسلاح المهندسين حفر الآبار الارتوازية وإنشاء خطوط السكك الحديدية وبناء مرافق التدريب العسكرية والمطارات في الحفير وإبْن [وهي مواقع عسكرية مهمة للجيش العثماني الرابع في شمال سيناء]، "والآن جيشنا على استعداد للزحف إلى مصر وتحريرها من مخالب المحتل [البريطاني]."[٨٨] ووصلت إلى بئر السبع الوفود القبلية من الحجاز لاستقبال القادة برقصة احتفالية، وبأغانٍ "بلهجاتهم البدوية".[٨٩]

عند محطة المدينة المنورة، استُقبلت البعثة العثمانية بتظاهرات شعبية منظمة مماثلة لتلك التي استقبلتها في دمشق وبيروت ويافا والقدس وبئر السبع، لكن هذا

الاستقبال اتخذ شكلاً قديماً يقارب شكل استقبالات القرون الوسطى، وربما يكون ذلك بسبب قدسية المكان ومحاولة إضفاء المسحة الدينية على الحدث. وقد وصف مراسل صحيفة "المقتبس" في دمشق حفل الاستقبال كما يلي:

> صدر الأمر العالي بالتوجه للحرم الشريف، فخرج مدير الصحة جمال بك وبشير بك مدير الشرطة من باب المحطة، فأمرا مشايخ الطرق بالسير، فساروا ينشدون الأناشيد المطربة، مرتلين ذكر الله، يحملون الأعلام الشريفة، ثم مشى عبيد الأغوات يميناً ويساراً تتقدمهم الطاسة، ثم السادة الأغوات كذلك، ثم بعدهم أدلة الحرم الشريف، ثم المؤذنون، ثم الخطباء والأئمة، ثم المفتي وسادات المدينة وأعيانها، ثم بقية الوفد السوري وهم: الشيخ أسعد الشقيري، والسيد أبو الخير عابدين مفتي القدس، وأديب تقي الدين نقيب السادة الأشراف في دمشق... وكان الجميع يرددون الشعارات الوطنية باللغتين بالعربية والتركية.[٩٠]

كانت زيارة المدينة المنورة هي الحدث المحوري والنهائي للبعثة، وقد وُصفت على أنها لحظة التئام الشمل عندما جاءت القيادة السورية والفلسطينية الجماعية لإعلان الولاء لأنور باشا وجمال باشا في حملتهما المصرية. وبعد أن ألقى وجهاء الحجاز كلماتهم، خاطب الحشدَ مفتي بيروت، وكامل أفندي الحسيني مفتي القدس، ونقيب أشراف دمشق: أديب تقي الدين، والشيخ أسعد الشقيري صاحب النفوذ الكلي.[٩١]

وضم الحضور عدداً من أعضاء القبائل الحجازية، فضلاً عن مئات الحجاج من الهند والجزائر والمغرب، وقد ألقى الشقيري، دعماً للحملة، خطاباً مهماً عن الجهاد كشرط ملزم لجميع المسلمين. وفقط قبيل عودة البعثة إلى دمشق، وفي لفتة وداعية للزوار، ظهر القائدان على منصة محطة القطار، يداً بيد مع "أميرنا المبجل" الأمير فيصل،[٩٢] وكان غياب شريف مكة، الملك حسين، لافتاً للانتباه.[٩٣]

وكان واضحاً أن هذا التجمع في المدينة المنورة صُمّم ليكون حدثاً مهماً للتعبئة والتضامن مع حملة السويس. وكانت محاوره الرئيسية هي الدعم القبلي، والوحدة الإسلامية، والأخوة العربية ـ التركية، وانصهارها في بوتقة المجهود الحربي العثماني، ذلك بأن شعارات الثورة الدستورية، والمواطنة، والهوية العثمانية، كانت قد تلاشت.

لقد جرت تلك الأحداث الموصوفة في ظل مفاوضات سرية بين الحلفاء وقيادة الحجاز التي كانت لا تزال تخضع اسمياً للقيادة العثمانية. واستمرت الحملة شهراً واحداً، من ١٣ شباط/فبراير، إلى ١٥ آذار/مارس ١٩١٦، وفي ٢٧ حزيران/يونيو ١٩١٦، أعلن الشريف حسين العصيان ضد الدولة العثمانية، أي أنه بالكاد فصلت ثلاثة أشهر ما بين هذه المسيرات وبين القطع النهائي بين إستانبول والمدينة المنورة. لقد أعلن شريف مكة سببين للعصيان: تقويض القيادة العلمانية لجمعية "الاتحاد والترقي" لمبادئ الخلافة الإسلامية، وبدايات حملة قمع أطلقتها القيادة ضد القوميين العرب،[٩٤] لكن كان واضحاً من الإعلان أن مشانق بيروت ودمشق والقدس هي التي وفّرت اللحظة الحاسمة.

الخلاصة: البعثتان السورية والحجازية من منظور استذكاري

في سنة ١٩٧٦، طُبعت صورة محمد كرد علي على طوابع الـ ٢٥ قرشاً الصادرة في الجمهورية العربية السورية، احتفالاً بالذكرى المئوية له، فقد أصبح المنارة المرشدة للهوية الوطنية السورية ورمز القومية العربية المعاصرة، ويقتصر منتقدوه اليوم على المفكرين الإسلاميين السلفيين الذين اعتبروه من دعاة المذاهب المادية متستراً بقناع مصلح إسلامي، بل أسوأ من ذلك، مدافعاً عن مذهب المعتزلة. ومن المثير للاهتمام أن لا أحد يتهمه اليوم بأنه داعية عثماني أو مدافع عن تجاوزات جمال باشا وأنور باشا، وهو ما كان حقاً. وقد غُفرت تلك "الانحرافات" في سياق مساعي المراجعة الجديدة التي بدأت بإعادة فحص الماضي العثماني في ضوء بلقنة الشرق الأوسط بعد سايكس بيكو، وسقوط الحكومة الفيصلية في دمشق.

لقد تقاطع انطلاق البعثتين، الأولى إلى الأناضول وغاليبولي، والثانية إلى سورية وفلسطين والحجاز، مع منعطف مهم في الحرب العظمى، ومع التوتر المتزايد بين قيادة جمعية "الاتحاد والترقي" والجماعات الانفصالية في الأقاليم العربية. وساعدت النجاحات السابقة المتمثلة في هزيمة القوات البريطانية في السويس وفي كوت العمارة، والتصدي في غاليبولي للقوات المشتركة البريطانية والأنزاكية (الأسترالية والنيوزيلندية)، على خلق انطباع عن الصمود العثماني في أذهان العرب. ونجحت الحملة الأولى في تعبئة بعض من أهم قادة المسلمين والمفكرين والصحافيين في الشرق العربي، مثل الباقر وكرد علي والشقيري والريماوي، من أجل الدفاع عن الحكومة العثمانية وإدارة جمال باشا ضد منتقديهما، وهذه الشخصيات جاءت من جميع المناطق العربية في الإمبراطورية، وشملت فريقاً فلسطينياً كبيراً ومؤثراً. لقد دافعوا عن الحكومة وعن قيادة جمال باشا على الرغم من كل ما أبداه من قساوة، باسم العقيدة العثمانية، والمواطنة العثمانية المشتركة، والحداثة العثمانية وإنجازاتها المادية في تعزيز التنمية في سورية، **لكن هذا الدفاع كان في الأساس عن الجامعة الإسلامية**.

كانت هذه جوانب واضحة التناقض بين الادعاءات العثمانية بشأن الولاء العربي، وبين التوتر في مختلف الخطب والأشعار والتقارير التي قدّمها المشاركون. فقد حوت التقارير ملاحظات قيّمة من طرف بعض كبار الصحافيين والكتّاب في سورية الكبرى على التقدم والتأهب العسكريين في مناطق الأناضول، والتي، على الرغم من لهجتها (التقارير) الدفاعية، فإنه يجب ألاّ يُنظر إليها على أنها تبريرات لنظام ينهار. لقد أظهرت التقارير أن السلطنة العثمانية وحكومة جمعية "الاتحاد والترقي" حازتا دعماً كبيراً بين السكان العرب في أول أعوام الحرب، وقامت الاستخبارات البريطانية والفرنسية كلاً على حدة، برصد هذا الدعم ووقعه على عاطفة العرب الشعبية تجاه العثمانيين خلال الحرب.[٩٥] وفي اتخاذ مؤلفي "البعثه العلمية" موقفاً دفاعياً عن القيادة العثمانية ضد الانفصالية العربية، فإنهم عرضوا بالتفصيل الإنجازات الكبرى التي حققتها الحكومة وإدارة جمال باشا في تحديث النظام المدرسي، وبناء الكليات والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة، كما أولوا ما قام به جمال باشا من إطالة خط سكة حديد الحجاز وخطوط التلغراف

رابطاً وسط فلسطين وجنوبها بسورية والأناضول والحجاز، اهتماماً خاصاً.

هذا النفوذ المعارض داخل البعثة أظهره المدافعون عن التيار العروبي، وهم سليم اليعقوبي والشيخ علي الريماوي وكرد علي نفسه، الذين عكس موقفهم هذا هوية ثقافية عربية تلبس الزي العثماني، مستندين إلى ارتباط قوي بالدولة العثمانية بصفتها حامية لوحدة مكوناتها الإثنية. وقد تم الإعراب عن ذلك بشيء من الشعور بالفخر النابع من إدراك، في أذهانهم هم، للتفوق العربي على المنظومة التركية الاستعبادية، ولجذور الإسلام العربية. وتجلّت عروبيتهم هذه بوضوح من خلال براعة الريماوي الأدبية، والتماثل القوي لليعقوبي مع نقاء الوهابية، ومهمة كرد علي في استعادة مجد الحضارة السورية.

كان هناك تركيز كبير في تقرير البعثة على مواقف الحجازيين من السلطنة. ففي الحملة الأولى، يظهر الأمير فيصل والهاشميون كمؤيدين مهمّين لجهود الحرب، كما أن انخراطهم كان أمراً حاسماً بالنسبة إلى حكومة جمعية "الاتحاد والترقي" بسبب مكانتهم الرمزية كحماة الأماكن المقدسة، وكموالين يضفون الشرعية على الخلافة العثمانية. وقد صُنّف الشريف حسين، والأمير فيصل الذي كان في مهمة تضامن في دمشق خلال تلك الفترة، مشاركَين في الحملة العثمانية ضد البريطانيين، أمّا في الحملة الثانية، فإن التعامل مع الحجازيين أصبح أكثر حذراً، وبات يُنظر إلى الهاشميين كداعمين متذبذبين. فقد أدّت حملة جمال باشا الشرسة ضد القوميين السوريين، بما في ذلك إعدام القادة الوطنيين في بيروت ودمشق والقدس، إلى إقصاء عدد متزايد من الموالين العثمانيين؛ ومع أن الهاشميين كانوا قد اتخذوا قراراً بالانفصال عن النظام العثماني عندما أُلقيت هذه الخطب، إلاّ إن درجة "خيانتهم" لم تكن واضحة لإستانبول بعد.

المسألة الثالثة التي تتضمنها تقارير البعثة هي قضية "التتريك"، وقد قدّم محمد كرد علي أرفع وصف للدعم العربي للرابطة العثمانية، قائماً على أساس الوحدة التركية ـ العربية، كما قدم نداء أكثر بلاغة وإيجازاً لثنائية اللغة كأداة للاندماج في الإمبراطورية. إن مساهمته في خطاب الوحدة في وثيقة غاليبولي تتناقض تناقضاً حاداً مع دعايته الاعتذارية لأنور باشا في "الرحلة الأنورية"، والذي تظهر فيه قضية التتريك كأنها قضية لغوية تعبّر عن هوية عثمانية مشتركة، وعن مسألة الاندماج السياسي للأقاليم العربية في الإمبراطورية.

وخلافاً لاتهامات لاحقة من طرف القوميين السوريين والعرب، فإنه لم يكن مطلوباً في التقرير فرض التتريك بالقوة ضد الثقافة العربية، وإنما على العكس من ذلك، يقترح التقرير عملية موازية للاندماج العثماني من خلال ما يُطلَق عليه "التتريك العربي" و"التعريب التركي" عبر إصلاح عام للمناهج الدراسية في أنظمة التعليم في سورية والأناضول. وكان إطار هذه المخططات الاستيعابية هو الرابط الإسلامي المشترك داخل الجامعة الإسلامية، غير أن هذه المخططات المقترحة هنا، وخصوصاً من محمد كرد علي وأسعد الشقيري، هي مبادئ توجيهية عامة للحفاظ على الاتحاد من تيارات التجزئة الإقليمية، بينما لم تُبذل أي محاولة لشرح الكيفية التي سيتم تنفيذها به، أو شرح عواقبها الاجتماعية. كما أنه لا يوجد ذكر لوضع الجماعات الإثنية أو الدينية الأُخرى في المجال العثماني، ما عدا إشارة واحدة إلى الأكراد والأرمن

واليونانيين (الروميين) والبلغار كمجموعات مكونة للأمة.[٩٦] وباستثناء لبنان حيث زار المندوبين مدارس الإرساليات، وألقى الخطباء المحليون كلمات لمصلحة الهوية العثمانية، فإن هناك تجاهلاً للمسيحيين العرب في كلا التقريرين، ولم يرد ولا حتى تلميح إلى الحملة ضد الأرمن.

إن رمزية التقريرين "الاعتذاريين" هي أن المؤلف الرئيسي للتقريرين، محمد كرد علي، كان رجلاً عالمياً (كوزموبوليتياً) من أصل شركسي ـ كردي، الأمر الذي ربما كان عاملاً وراء تبنّيه الحاد والصارخ للعثمانية ولثنائية اللغة بصفتها أداة للاندماج الوطني، وربما كان أيضاً عاملاً في تخلّيه المفاجئ عن هويته الوطنية لمصلحة القومية العربية السورية، لكنه سرعان ما ندم على تأليفه التقرير الذي ألقى بظلال قاتمة على نزاهته كعالِم خلال الفترة الفيصلية في دمشق. ونحن هنا نلاحظ التراجع في الخطاب عن الهوية العثمانية، وازدياد الإشارة إلى الإسلام والوحدة الإسلامية وقوة الأواصر الإسلامية في السلطنة، وليس من المستغرب أن عدداً من المثقفين المسيحيين في جبل لبنان وفلسطين، مثل نجيب نصار وبطرس البستاني وغيرهما، قام أيضاً بتبنّي هذا الخطاب عن إسلامية الجوهر العثماني،[٩٧] غير أن الهوية العثمانية في أعمالهم، كانت بالنسبة إليهم عقيدة علمانية تتعلق بالمواطنة المتحررة، والتي يكون جوهرها ثقافياً إسلامياً. وشكلت الصهيونية في فلسطين عاملاً في إحداث انقسام في آراء النخبة المحلية المثقفة تجاه قيادة جمعية "الاتحاد والترقي"، ففي نابلس ويافا، على سبيل المثال، كان هناك تأييد واسع لاستعادة النهج الحميدي، وكان منبعه الخوف من أعضاء جمعية "تركيا الفتاة" الذين يُظهرون مواقف متعاطفة مع الاستيطان اليهودي، بينما كان موقف السلطان معارضاً بشدة لبيع الأراضي وللاستعمار.[٩٨] ويوجد في الأدبيات الحديثة دعم قوي للرأي القائل إن الأيديولوجيا العثمانية لم تتبلور في الشرق العربي إلاّ في الفترة الدستورية من خلال ظهور المواطنة في السلطنة، أو على الأقل، المطالبة بها، وقد قام كل من ميشيل كامبوس وبطرس أبو منّة بدراسة هذا التطور، الأول في فلسطين، والثاني في لبنان، وكلاهما أكد أهمية دور النخبة المثقفة المسيحية (وكذلك العثمانية اليهودية في حالة فلسطين) في نمو رابطة مواطنة تتجاوز الحدود الطائفية.[٩٩] من ناحية ثانية، يشرح حسن كيالي أن هذا المفهوم الأولي الجامع للجميع، والذي هو المواطنة في السلطنة، تقلّص خلال الحرب ليصبح مفهوماً تقوده جمعية "الاتحاد والترقي"، وفحواه العثمانية الإسلامية التي جوهرها سورية والأناضول. وتفاقم هذا التطور بسبب انفصال الأقاليم الأوروبية عن السلطنة، والتهديدات الاستعمارية لوحدة السلطنة، والمسألة الأرمنية، غير أن هذه العثمانية الإسلامية كانت بحدّ ذاتها عرضة للتحديات في سورية والحجاز ـ من جانب المثقفين العروبيين في سورية، والمعارضة الحجازية ـ لتقويض الخلافة على يد جمعية "تركيا الفتاة" في الحجاز، فضلاً عن التحديات الوهابية ضد إستانبول.[١٠٠] ففي الحالة الأولى، جاء التحدي من القوميين والاستقلاليين العرب المهددين بما اعتبروه نزعات طورانية ضمن قيادة جمعية "الاتحاد والترقي"، وفي الحالة الثانية (في الحجاز وكذلك في فلسطين)، كان التحدي يكمن في إدراك العرب أن أعضاء جمعية "تركيا الفتاة" يقوّضون مبادئ الحكم الإسلامي كما يرونه.

من غير المرجح أن "البعثة العلمية" أو تقريرها المرافق: "الرحلة الأنورية"، قد أثرا بصورة إيجابية في الجمهور المتعلم في سورية وفلسطين، لمصلحة المجهود الحربي العثماني، ذلك بأن موجة المشاعر المتصاعدة ضد إدارة جمال باشا كانت قد بدأت تكتسب زخماً وقوة بسبب الأثر المدمر لسياسة "السفربرلك" والحصار الاقتصادي للساحل السوري. لكن كون البعثتين إلى غاليبولي والحجاز قد تمكنتا من حشد مثل هذه المجموعة المؤثرة من العلماء والشخصيات البارزة في الصحافة والتعليم ـ قليلون منهم عُرفوا بأسلوبهم الانتقادي للحكومة ـ أمر يكشف أن الموقف العام في ذروة الحملة العسكرية كان لا يزال مؤيداً وداعماً للأواصر التي توحد سورية والأناضول، وأن فئة كبيرة من الجمهور العربي ظلت مؤمنة بالأمة العثمانية على أنها أمتهم، وأن الانفصال عن إستانبول لا يزال يحمل سمة الخيانة.

بين جميع المؤلفين المشاركين في الحملتين، كان محمد كرد علي الوحيد الذي استمر أثره في الشرق العربي وما بعده، وما زال منتقدوه ومؤيدوه يواصلون مناقشة أفكاره حتى يومنا هذا. فخصومه يرون فيه القومي العربي المتنكر كعالِم دين يفضّل العروبيين المسيحيين على المسلمين السلفيين الذين يختلف معهم، بينما انتقده العلماء المحافظون بشدة لمناصرته "حركة السفور"، وادعائه وفقاً لأحد خصومه، أن تعليمات ارتداء الحجاب تنطبق على زوجات النبي فقط، وليس على المرأة المسلمة بصورة عامة.[١٠١] وهوجم أيضاً لدفاعه في التقريرين عن أفعال قيادة جمعية "الاتحاد والترقي"، حتى عندما كان هو نفسه لا يؤمن بمهمتهما. والقول الفصل بشأن مأزق محمد كرد علي، نراه لدى تلميذه وأحد معجبيه وهو خير الدين الزركلي الذي يقول في كتابه "الأعلام" الذي ضمّنه ترجمة ذاتية لكرد علي: "وظل يخشى شبح 'جمال' حتى بعد الحرب، وفي مذكراته ما يدل على بقاء أثر من هذا في نفسه إلى آخر أيامه."[١٠٢] ■

المصادر

١ **Michael Fischbach, "As'ad Shuqayri", in *Palestinian Personalities: A Biographic Dictionary,* edited by Mahdi Abdul Hadi (Jerusalem: Passia, 2006), pp. 448-449.**

٢ **محمد الباقر ومحمد كرد علي وحسين الحبال وعبد الباسط الأنسي، "البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلامية" (بيروت: المطبعة العلمية، ١٣٣٤هـ/١٩١٦م)؛ محمد كرد علي، "الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية: وهي صفحات ضمت شمل ما تفرّق من سياحة رجل العثمانيين وبطل الإسلام والمسلمين، صاحب الدولة والعطوفة أنور باشا وكيل القائد الأعظم وناظر الحربية الجليلة إلى المدينة المنورة وسورية وفلسطين، وما قيل من التنويه بأفضاله على الملة والدولة" (بيروت: المطبعة العلمية، ١٣٣٤هـ/١٩١٦م).**

٣ **Ilham Khuri-Makdisi, *The Eastern Mediterranean and the Making of Global Radicalism, 1860-1914* (Berkeley: University of California Press, 2010).**

٤ منير فخر الدين، "هواجس 'النهضة' في رسائل جبران كزما إلى جمال الحسيني، ١٩٢١ ـ ١٩٢٣"، "حوليات القدس"، المجلد ١٢ (شتاء ٢٠١٢)، ص ٢٥ ـ ٣٣. وانظر أيضاً:
Munir Fakher Eldin, "Communities of Owners: Land Law, Governance, and Politics in Palestine, 1858-1948", unpublished Ph.D. thesis, New York University, 2008.

٥ كرد علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٩.

٦ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٨ ـ ٩.

٧ انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ص ٦٣ ـ ٦٤.

٨ المصدر نفسه، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

٩ يعقوب العودات، "الشيخ علي الريماوي"، في: يعقوب العودات، "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" (عمّان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦)، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

١٠ يعقوب يهوشع، "تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني (١٩٠٨ ـ ١٩١٨)" (القدس: مطبعة المعارف، ١٩٧٤)، ص ٧٤.

١١ علي الريماوي، "النجاح"، العدد ٥٠ (١٩١٠/٤/٨)، مقتبس من يهوشع، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤ ـ ٧٥.

١٢ يهوشع، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

١٣ "هاحيروت" (١٩١٣/٣/٨)، مقتبس من يهوشع، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.

١٤ للاطلاع على شعر الريماوي الشبيه بسرد سِيَر القديسين، انظر: الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧ ـ ٦٨، ١٩٦ ـ ١٩٧، ٢٠٨ ـ ٢١١، ٢٨٣ ـ ٢٨٤. وللريماوي قصائد في القوات المسلحة العثمانية وأنور باشا، في: كرد علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٣، ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

١٥ جريدة "فلسطين" الرسمية، الملحق ٣٨أ (١٩١٨/١٢/٢٦)، مقتبس من يهوشع، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.

١٦ سمير شحادة التميمي، "حسّان فلسطين، سليم أبو الإقبال اليعقوبي، ١٨٨٠ ـ ١٩٤١: حياته وشعره" (القدس: اتحاد الكتّاب الفلسطينيين، ١٩٩١)، ص ٧٣.

١٧ المصدر نفسه، ص ٢.

١٨ يعقوب العودات، "الشيخ سليم اليعقوبي"، في: العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧٣.

١٩ المصدر نفسه.

٢٠ المصدر نفسه، ص ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

٢١ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٨.

٢٢ كرد علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

٢٣ العودات، "الشيخ سليم اليعقوبي"، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧٢ ـ ٦٧٣ ؛ التميمي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤ ـ ١٥.

٢٤ التميمي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩ ـ ٢٠.

٢٥ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠.

٢٦ المصدر نفسه، ص ٩١.

٢٧ المصدر نفسه، ص ٩٢.

٢٨ المصدر نفسه، ص ٩٣. وبالنسبة إلى مخططات الأشغال العامة واستثمارات البنية التحتية في سورية وفلسطين الخاصة بجمال باشا، انظر:
Hasan Kayali, "Wartime Regional and Imperial Integration of Greater Syria during World War I", in *The Syrian Land: Processes of Integration and Fragmentation, Bilad al-Sham from the 18th to the 20th Century,* edited by Birgit Schäbler and Thomas Philipp (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1998), pp. 295-329.

٢٩ محمد كرد علي، "حياة مؤلف خطط الشام: ترجمته بنفسه"، في: "خطط الشام"، المجلد السادس (دمشق: مطبعة النوري، ١٩٨٣)، ص ٣٣٨.

٣٠ المصدر نفسه، ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧.

٣١ المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

٣٢ المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

٣٣ المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

٣٤ المصدر نفسه، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

٣٥ المصدر نفسه، ص ٣٤١؛ انظر أيضاً: علي عفيفي الغازي، "محمد كرد علي: رحالة في سبيل العلم"، "الحياة"، ٢٠١٣/٢/١٥.

٣٦ Samir Seikaly, "Damascene Intellectual Life in the Opening Years of the 20th Century: Muhammad Kurd Ali and Al-Muqtabas", in *Intellectual life in the Arab East, 1890-1939*, edited by Marwan R. Buheiry (Beirut: American University of Beirut, Center for Arab and Middle East Studies, 1981).

٣٧ Ibid., pp. 126-127.

٣٨ Ibid., p.137.

٣٩ Ibid., pp. 131, 148.

٤٠ Ibid., p.131.

وهذا مقتبس من محمد كرد علي، "العربية والتركية"، "المقتبس"، المجلد الرابع، الجزء الثاني (١٩٠٩)، ص ١٠٩ ـ ١١٢.

٤١ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٨.

٤٢ المصدر نفسه، ص ١٤٣.

٤٣ انظر بصورة خاصة المقالتين التاليتين: "العمران الحقيقي في دار السلطنة"، و"نبذة في وصف الأناضول: عظمة بلادنا واتساعها"، في: الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢، ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

٤٤ Salim Tamari, "Shifting Ottoman Conceptions of Palestine, Part 1: Filistin Risalesi and the Two Jamals", *Jerusalem Quarterly*, issue 47 (Autumn 2011), pp. 28-38; Salim Tamari, "Shifting Ottoman Conceptions of Palestine, Part 2: Ethnography and Cartography", *Jerusalem Quarterly*, issue 48 (Winter 2011), pp. 6-16.

٤٥ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.

٤٦ المصدر نفسه، ص ٢١٤.

٤٧ المصدر نفسه، ص ٢١٥.

٤٨ المصدر نفسه، ص ٢١٦.

٤٩ المصدر نفسه، ص ٢١٨.
٥٠ المصدر نفسه، ص ٢١٩.
٥١ المصدر نفسه، ص ٢٣١.
٥٢ المصدر نفسه، ص ٢٣٣.
٥٣ المصدر نفسه.
٥٤ المصدر نفسه، ص ٢٤٧.
٥٥ Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908- 1918* (Berkeley: University of California Press, 1997), pp. 40-46.
٥٦ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
٥٧ المصدر نفسه، ص ٢٤٨.
٥٨ المصدر نفسه.
٥٩ المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
٦٠ المصدر نفسه، ص ٢٦٦.
٦١ المصدر نفسه، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠.
٦٢ المصدر نفسه، ص ٢٧٠.
٦٣ المصدر نفسه، ص ٢٧٨.
٦٤ انظر:
Erik Jan Zürcher, "Ottoman Labour Battalions in World War 1", http://www.arts.yorku.ca/hist/tgallant/documentszurcherottomanlaborbattalions.pdf
٦٥ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩.
٦٦ المصدر نفسه، ص ٢٧٨.
٦٧ المصدر نفسه.
٦٨ المصدر نفسه، ص ٢٧٩.
٦٩ Muhammet Talha Çiçek, *War and State Formation in Syria: Cemal Pasha's Governorate during World War 1, 1914-1917* (New York: Routledge, 2014), pp. 68-69.
٧٠ كرد علي، "حياة مؤلف خطط الشام..."، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤١.
٧١ Çiçek, op.cit., p. 69.
٧٢ Ibid., pp. 69-70.
٧٣ Ibid., p. 70.
٧٤ كرد علي، "الرحلة الأنورية..."، مصدر سبق ذكره.
٧٥ الغازي، مصدر سبق ذكره.
٧٦ كرد علي، "الرحلة الأنورية..."، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣.
٧٧ المصدر نفسه، ص ١٠١.
٧٨ المصدر نفسه، ص ٩٦، ١١٦.

٧٩ المصدر نفسه، ص ١٢٤.
٨٠ المصدر نفسه، ص ١٢٦.
٨١ المصدر نفسه، ص ٢١٩.
٨٢ المصدر نفسه، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.
٨٣ المصدر نفسه، ص ٢٢١.
٨٤ المصدر نفسه.
٨٥ المصدر نفسه، ص ٢٢٤.
٨٦ المصدر نفسه، ص ٢٢٨.
٨٧ المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
٨٨ المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
٨٩ المصدر نفسه، ص ٢٥٥.
٩٠ المصدر نفسه، ص ٢٥٩.
٩١ المصدر نفسه.
٩٢ المصدر نفسه، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠.
٩٣ لقد أرسل الشريف حسين، أمير مكة المكرمة، مذكرة إلى أنور باشا يعتذر فيها عن عدم قدرته على المجيء إلى المدينة المنورة، وأرسل سيفَين مرصعين بالجواهر إلى القائدين (انظر: كرد علي، "الرحلة الأنورية..."، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩).
٩٤ انظر الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.firstworldwar.com/source/arabindependence_hussein.htm
٩٥ انظر محسن محمد الصالح، "موقف أهل شمال فلسطين من نهاية الدولة العثمانية وبداية الاحتلال البريطاني"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٦٣ (صيف ٢٠٠٥)، ص ٦٤ ـ ٦٥.
٩٦ الباقر وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٩.
٩٧ انظر:
Butrus Abu Manneh, "Arab Ottomanists' Reactions to the Young Turk Revolution", in *Late Ottoman Palestine: The Period of Young Turk Rule*, edited by Yuval Ben-Bassat and Eyal Ginio (London: I. B. Tauris 2011), pp. 145-165.
٩٨ إحسان النمر، "تاريخ جبل نابلس والبلقاء" (نابلس: مطبعة النصر التجارية، ١٩٦١)، المجلد الثالث، ص ٩٩ ـ ١٢٦.
٩٩ Michelle U. Campos, *Ottoman Brothers: Muslims, Christians, and Jews in Early Twentieth-Century Palestine* (Stanford: Stanford University Press, 2011); Butrus Abu Manneh, "The Christians between Ottomanism and Syrian Nationalism: The Ideas of Butrus Al-Bustani", *International Journal of Middle East Studies*, vol. 11 (1980), pp.287-304.
١٠٠ يشير أنجين دينيز أكارلي إلى افتقار حسن الكيالي إلى التمييز بين مختلف التيارات الإسلامية، في:
Engin Deniz Akarli, "Arab Nationalism and the Ottomans", *Journal of Palestine Studies*, vol. 27, no. 4 (Summer 1998), pp. 107-108.

١٠١ أبو مشاري، "نظرات في تخبيطات كرد علي في المذكرات"، في الموقع الإلكتروني التالي:
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=93398
١٠٢ خير الدين الزركلي، "كتاب الأعلام"، مادة "محمد كرد علي".

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل ـ ٧)

السياسة الإسرائيلية تجاه الأغوار وآفاقها

أحمد حنيطي

١٤١ صفحة ٨ دولارات